يظهر عليك أثر النعمة ، هذا عن المؤمنين ، فماذا عن الكافرين ؟

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١) ﴿١٦﴾ ﴾

المحضر بالفتح : الذي يحضره غيره ، ولا تُقال إلا في الشر ، وفيها ما يدلُّ على الإدانة ، وإلا لحضر هو بنفسه ، ونحن نفزع لسماع هذه الكلمة ؛ لأن المحضر لا يأتيك إلا لشر ، كذلك حال الكفار والمكذِّبين يوم القيامة تجرُّهم الملائكة ، وتجبرهم ، وتسوقهم للحضور رَغْماً عنهم .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ ﴾

هنا تتجلى عظمة الإيمان ، وتتجلى محبة الله تعالى لخَلْقه ، حيث يدعوهم إليه في كل أوقات اليوم والليلة ، في الصباح وفي المساء ، في العشية والظهيرة .

والحق سبحانه حين يطلب من عباده أن يؤمنوا به ، إنما لحبه لهم ، وحرصه عليهم ليعطيهم ، ويفيض عليهم من آلائه ؛ وإلا فهو سبحانه بصفات الكمال والجلال غنيٌّ عنهم ، فإيمان المؤمنين لا يزيد

(١) محضرون : مقيمون . وقيل : مجموعون . وقيل : مُعذَّبون . وقيل : نازلون . والمعنى متقارب . [تفسير القرطبي ٧/٥٢٦٩] .

فى مُلْكه سبحانه شيئاً ، كذلك كُفْر الكافرين لا ينقص من مُلكه سبحانه شيئاً .

إذن : المسألة أنه سبحانه يريد أنْ يبرَّ صنعته ، ويُكرم خَلْقه وعباده ؛ لذلك يستدعيهم إلى حضرته ، وقرَّبنا هذه المسألة بمثل ـ ولله تعالى المثل الأعلى ـ ، قلنا : إذا أردتَ أنْ تقابل أحد العظماء ، أو أصحاب المراكز العليا ، فدون هذا اللقاء مشاقّ لا بُدَّ أنْ تتجشمها .

لا بُدَّ أن يُؤْذَن لك أولاً فى اللقاء ، ثم يُحدَّد لك الزمان والمكان ، بل ومدة اللقاء وموضوعه ، وربما الكلمات التى ستقولها ، ثم هو الذى يُنهى اللقاء ، لا أنت .

هذا إنْ أردتَ لقاء الخَلْق ، فما بالك بلقاء الخالق عز وجل ؟ يكفى أنه سبحانه يستدعيك بنفسه إلى حضرته ، ويجعل ذلك فرضاً وحتماً عليك ، ويطلبك قبل أنْ تطلبه ، ويذكرك قبل أن تذكره ، لا مرة واحدة ، إنما خمس مرات فى اليوم والليلة ، فإذا لبَّيْتَ طلبه أفاض عليك من رحمته ، ومن نعمه ، ومن تجلياته ، وما بالك بصنعة تُعرَض على صانعها خمس مرات كل يوم ، أيصيبها عطب ؟

ثم يترك لك ربك كل تفاصيل هذه المقابلة ، فتختار أنت الزمان والمكان والموضوع ، فإنْ أردتَ أنْ تطيل أمد المقابلة ، فإن ربك لا يملّ حتى تمل ؛ لذلك فإن أهل المعرفة الذين عرفوا لله تعالى قَدْره ، وعرفوا عطاءه ، وعرفوا عاقبة اللجوء إليه سبحانه يقولون :

حَسْبُ نفسى عِزّاً بأنِّى عَبْدٌ ... يَحْتَفى بى بلاَ مَوَاعيدَ رَبّ
هُوَ فى قُدْسه الأعزّ ولكن ... أنا ألقى كيفما وأين أحب

والعبودية كلمة مكروهة عند البشر ؛ لأن العبودية للبشر ذُلٌّ

ومهانة ، حيث يأخذ السيد خير عبده ، أمّا العبودية لله فهى قمة العزّ كله ، وفيها يأخذ العبد خير سيده ؛ لذلك امتنّ الله تعالى على رسوله ﷺ بهذه العبودية فى قوله سبحانه : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ①﴾ [الإسراء]

وكلمة ﴿فَسُبْحَانَ اللَّهِ .. ⑰﴾ [الروم] هى فى ذاتها عبادة وتسبيح لله تعنى : أُنزِّه الله عن أنْ يكون مثله شىء ؛ لذلك يقول أهل المعرفة : كل ما يخطر ببالك فالله غير ذلك ؛ لأنه سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ .. ⑪﴾ [الشورى]

فالله سبحانه مُنزَّه فى ذاته ، مُنزَّه فى صفاته ، مُنزَّه فى أفعاله ، فإنْ وجدنا صفة مشتركة بين الخَلْق والخالق سبحانه نفهمها فى إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ .. ⑪﴾ [الشورى]

وقلنا : إنك لو استقرأتَ مادة سبح ومشتقاتها فى كتاب الله تجد فى أول الإسراء : ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ①﴾ [الإسراء] وفى أول سورة الحديد : ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَالأَرْضِ .. ①﴾ [الحديد] ثم ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى السَّمَـٰوَاتِ وَمَا فِى الأَرْضِ .. ①﴾ [الجمعة]

فكأن الله تعالى مُسبَّح أزلاً قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، فالتسبيح ثابت لله أولاً ، وبعد ذلك سبَّحَتْ له السماوات والأرض ، ولم ينقطع تسبيحها ، إنما ما زالت مُسبِّحة لله .

فإذا كان التسبيح ثابتاً لله تعالى قبل أنْ يخلق مَنْ يُسبِّحه ، وحين خلق السماوات والأرض سبَّحتْ له السماوات والأرض وما زالت ، فعليك أنت أيها الإنسان ألاَّ تشذَّ عن هذه القاعدة ، وألاَّ تتخلف عن هذه المنظومة الكونية ، وأن تكون أنت كذلك مُسبِّحاً ؛ لذلك جاء فى القرآن : ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ①﴾ [الأعلى]

فاستح أنت أيها الإنسان ، فكل شيء في الوجود مُسبِّح ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

لكن أراد بعض العلماء أنْ يُقرِّب تسبيح الجمادات التي لا يسمع لها صوتاً ولا حساً ، فقال : إن تسبيحها تسبيح دلالة على الله . ونقول : إنْ كان تسبيح دلالة كما تقول فقد فهمته ، والله يقول ﴿ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ .. (٤٤) ﴾ [الإسراء]

إذن : ففهْمُك له غير حقيقي ، وما دام أن الله أخبر أنها تُسبِّح فهي تُسبِّح على الحقيقة بلغة لا نعرفها نحن ، ولمَ لا والله قد أعطانا أمثلة لأشياء غير ناطقة سبَّحتْ ؟ ألم يقُلْ عن الجبال أنها تُسبِّح مع داود عليه السلام : ﴿ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِي[1] مَعَهُ وَالطَّيْرَ .. (١٠) ﴾ [سبأ] ألم يُثبت للنملة وللهدهد كلاماً ومنطقاً ؟ وقال في عموم الكائنات : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ .. (٤١) ﴾ [النور]

إذن : فالتسبيح لله تعالى من كل الكائنات ، والحق سبحانه يعطينا المثل في ذواتنا : فأنت إذا لم تكُنْ تعرف الإنجليزية مثلاً ، أتفهم مَنْ يتكلم بها ؟ وهي لغة لها أصوات وحروف تُنطق ، وتسمعها بنفس الطريقة التي تتكلم أنت بها .

لذلك تأتي كلمة (سبحان الله) في الأشياء التي يجب أنْ تُنزه الله فيها ، واقرأ إنْ شئتْ قوله تعالى في الإسراء : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. (١) ﴾ [الإسراء] كأنه سبحانه يقول لنا : نزِّهوا الله عن مشابهة البشر ، وعن قوانين البشر في هذه المسألة ، إياك أنْ تقول : كيف ذهب محمد من مكة إلى بيت المقدس ، ثم يصعد إلى السماء ، ويعود في ليلة واحدة .

---

(١) أوِّبي : ردِّدي الذكر والتسبيح مع داود . [القاموس القويم ١/ ٤٢] .

فبقانون البشر يصعُب عليك فهْم هذه المسألة ، وهذا ما فعله كفار مكة حيث قالوا : كيف ونحن نضرب إليها أكباد الإبل شهراً[1] ، وتدَّعي أنك أتيتها في ليلة ؟ فقاسوا المسألة والمسافات على قدرتهم هم ، فاستبعدوا ذلك وكذَّبوه .

ولو تأملوا الآية ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ .. ۝١ ﴾ [الإسراء] وهم أهل اللغة لعرفوا أن الإسراء لم يكُنْ بقوة محمد ، فلم يقُلْ أسريتُ ، ولكن قال « أسرى بي » ، فلا دخلَ له في هذه المسألة وقانونه فيها مُلْغى ، إنما أسرى بقانون مَنْ أسرى به .

إذن : عليك أن تُنزه الله عن قوانينك في الزمان وفي المسافة ، وإنْ أردتَ أن تُقرب هذه المسألة للعقل ، فالمسافة تحتاج إلى زمن يتناسب مع الوسيلة التي ستقطع بها المسافة ، فالذي يسير غير الذي يركب دابةً ، غير الذي يركب سيارة أو طائرة أو صاروخاً وهكذا .

فإذا كان في قوانين البشر : إذا زادت القوة قلَّ الزمن ، فكيف لو نسبْتَ القوة إلى الله عز وجل ؟ عندها نقول : لا زمن فإنْ قُلْتَ : إن ألغينا الزمن مع قوة الله وقدرته تعالى ، فلماذا ذكر الزمن هنا وقُدِّر بليلة ؟

قالوا : لأن الرحلة لم تقتصر على الذهاب والعودة ، إنما تعرَّض فيها النبي ﷺ لمرائي كثيرة ، وقابل هناك بعض الأنبياء ، وتحدَّث معهم ، فهذه الأحداث لرسول الله هي التي استغرقتْ الزمن ، أمَّا الرحلة فلم تستغرق وقتاً .

---

(١) أورد ابن هشام في السيرة النبوية (٣٩٨/١) « أن أكثر الناس في قريش قالوا : هذا والله الأمْر البيِّن ، والله إن العير لتُطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة ، وشهراً مقبلة ، أفيذهب ذلك محمد في ليلة واحدة ويرجع إلى مكة » .

كذلك جاءت كلمة (سبحان) في قوله تعالى : ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] لماذا ؟ لأن مسألة الخَلْق من المسائل التي يقف عندها العقل ، وينبغي أنْ نُنزِّه الله عن أنْ يشاركه فيها أحد .

ولما نزلت هذه الآية كان الناس يعرفون الزوجية في النبات لأنهم كانوا يُلقِّحون النخل ، ويعرفونها في الإنسان ؛ لأنهم يتزوجون وينجبون ، وكذلك يعرفونها في الحيوان ، هذه حدود العقل في مسألة الزوجية .

لكن الآية لم تقتصر على ذلك ، إنما قال سبحانه ﴿وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ (٣٦)﴾ [يس] لأن المستقبل سيكشف لهم عن أشياء أخرى تقوم على نظرية الزوجية ، وقد عرفنا نحن هذه النظرية في الكهرباء مثلاً حيث (السالب) و (الموجب) ، وفي الذرات حيث (الإلكترونات) ، و (البروتونات) .. الخ .

إذن : ساعة تسمع كلمة التسبيح فاعلم أنك ستستقبل حدثاً فريداً ، ليس كأحداث البشر ، ولا يخضع لقوانينهم .

ثم يقول سبحانه :

﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ
وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨)﴾

نلحظ أن قوله تعالى ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ .. (١٨)﴾ [الروم] فصلَتْ بين الأزمنة المذكورة ، فجعلت ﴿تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧)﴾ [الروم] في ناحية ، و ﴿وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨)﴾ [الروم] في ناحية ، مع أنها جميعاً أوقات وأزمنة في اليوم والليلة ، لماذا ؟

قالوا : لأنه سبحانه يريد أنْ يُشعرنا أن له الحمد ، ويجب أنْ

تحـمده على أنه مُنـزَّه عن المثيل ؛ لأنها فـى مصلحـتك أنت ، وأنت الجانى لثمار هذا التنزيه ، فإنْ أرادك بخير فلا مثيلَ له سبحانه يمنعه عنك ، وله وحده الكبرياء الذى يحميك أن يتكبر أحد عليك ، وله وحده تخضع وتسـجد ، لا تسجد لغيـره ، فسجودك لوجـه ربك يكفيك كل الأوجه ، كما قال الشاعر :

فَالسُّجُودُ الذِى تَجْتويهِ[1] فيه   منْ أُلُـوفِ السُّجُـودِ نَجَـاةُ

إذن : من مصلحـتك أن يكون الله تعالى هو الواحد الذى لا مـثيلَ له ، والقوى الذى لا يوجـد أقوى منه ، والمتكبِّر بحقٍّ ؛ لأن كـبرياءه يحمى الضعيف أنْ يتكبّر عليـه القوى ، يجب أنْ تحمد الله الذى تعبَّدنا بالسجود له وحـده ، وبالخضوع له وحده ؛ لأنه أنجـاك بالسجود له أنْ تسجـد لكل قوى عنك ، وهذا من عظمـته تعالى ورحـمتـه بخَلْقه ؛ لذلك تستوجب الحمد .

لذلك نقـول فى العامـية (اللى ملوش كـبيـر يشتـرى له كبـير) لماذا ؟ لأنه لا يعيش عزيزاً مُكرّماً إلا إذا كان له كبير يحميه ، ويدافع عنه ، كذلك أنت لا تكون عزيزاً إلا فى عبوديتك لله .

والخَلْق جمـيعاً بالنسـبة لله تعالـى سواء ، فليس له سبـحانه من عبـاده ولد ولا قريب ، فـلا مؤثرات تؤثر عـليه ، فيـحابى أحـداً على أحد . فنحن جـميعـاً شركة فـى الله ؛ لذلك يقول سبـحانه ﴿مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلا وَلَدًا ③﴾ [الجن] أى : لا شىء يؤثر عليه سبحانه .

وقال بعـد التسـبيح ﴿وَلَهُ الْحَمْدُ .. ⑱﴾ [الروم] لأن التسـبيح

(١) الاجتواء : عدم موافـقة الشىء للإنسان فتحدث كراهية له ، ومنهـا اجتويت البلد إذا كرهت المقام فيه ، وإن كنت فى نعمة . [لسان العرب ـ مادة : جوى] .

ينبغى أنْ يُتبع بالحمد فتقول : سبحان الله والحمد لله ، أى : الحمد لله على أنني سبَّحت مسبِّحاً .

وحين نتأمل هذه الأوقات التى أمرنا الله فيها بالتسبيح ، وهى المساء والصباح والعشى ، وهى من العصر إلى المغرب . ثم الظهيرة نجد أنها أوقات عامة سارية فى كَوْن الله لا تنقطع أبداً ، فأيّ صباح وأيّ مساء ؟ صباحى أنا ؟ أم صباح الآخرين ؟ مسائي أم مساء غيري في أقصى أطراف المعمورة ؟

إن المتأمل في دورة الوقت يجد أن كل لحظة فيه لا تخلو من صباح ومساء ، وعشية وظهيرة ، وهذا يعني أن الله تعالى مُسبَّح معبود في كل لحظة من لحظات الزمن .

وفى ضوء هذا نفهم قول الرسول ﷺ : « إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مُسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل »[1] فالكون لا يخلو فى لحظة واحدة من ليل أو نهار ، وهذا يعنى أن يد الله سبحانه مبسوطة دائماً لا تُقبض : ﴿ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ .. (٦٤) ﴾ [المائدة]

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩) ﴾

أولاً : ما مناسبة الحديث عن البعث ، وإخراج الحيِّ من الميت ، وإخراج الميت من الحيِّ بعد الحديث عن تسبيح الله وتحميده ؟ قالوا :

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

لأنه تكلَّم عن المساء والصباح ، وفيهما شبه بالحياة والموت ، ففي المساء يحلُّ الظلام ، ويسكُن الخلْق وينامون ، فهو وقت للهدوء والاستقرار ، والنوم الذي هو صورة من صور الموت ؛ لذلك نسميه الموت الأصغر ، وفي الصباح وقت الحركة والعمل والسعي على المعاش ، ففيه إذن حياة ، كما يقول سبحانه : ﴿ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) ﴾ [النبأ]

ويُمثِّل الموت والبعث بالنوم والاستيقاظ منه ، كما جاء في بعض المواعظ : « لتموتُنّ كما تنامون ، ولتُبعثُنّ كما تستيقظون » .

وما دُمْنا قد شاهدنا الحالَيْن ، وعايَنَّا النوم واليقظة ، فلنأخذ منهما دليلاً على البعث بعد الموت ، وإنْ أخبرنا القرآن بذلك ، فعلينا أنْ نُصدِّق ، وأنْ نأخذ من المشاهد دليلاً على الغَيْب ، وهذا ما جاءتْ به الآية :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (١٩) ﴾ [الروم]

وقوله تعالى هنا (الحي والميت) أي : في نظرنا نحن وعلى حدِّ عِلْمنا وفَهْمنا للأمور ، وإلا فكُلُّ شيء في الوجود له حياة تناسبه ، ولا يوجد موت حقيقي إلا في الآخرة التي قال الله فيها : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ .. (٨٨) ﴾ [القصص]

فضِدُّ الحياة الهلاك بدليل قوله تعالى : ﴿ لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ .. (٤٢) ﴾ [الأنفال]

وما دام كُلُّ شيء هالكاً إلا وجهه تعالى ، فكل شيء بالتالي حَيٌّ ، لكنه حي بحياة تناسبه . وأذكر أنهم كانوا يُعلِّموننا كيفية عمل

المغناطيس وانتقال المغناطيسية من قطعة مُمغنطة إلى قطعة أخرى بالدَّلْك فى اتجاه واحد ، وفعلاً شاهدنا أن قطعة الحديد تكتسب المغناطيسية .

وتستطيع أنْ تجذب إليها قطعة أخرى ، أليس هذا مظهراً من مظاهر الحياة ؟ أليست هذه حركة فى الجماد الذى نراه نحن جماداً لا حياةَ فيه ، وهو يؤثر ويتأثر بغيره ، وفيه ذرات تتحرك بنظام ثابت ولها قانون .

إذن : نقول لكل شيء موجود حياته الخاصة به ، وإنْ كُنَّا لا ندركها ؛ لأننا نفهم أن الحياة فى الأحياء فحسب ، إنما هى فى كل شيء وكَوْنك لا تفقه حياة هذه الأشياء ، فهذه مسألة أخرى .

لذلك سيدنا سليمان - عليه السلام - لما سمع كلام النملة ، وكيف أنها تفهم وتقف ديدباناً لقبيلتها ، وتفهم حركة الجيش وعاقبة الوقوف فى طريقه ، فتحذر جماعتها ادخلوا مساكنكم ، وكيف كانت واعية ، وعادلة فى قولها .

﴿ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [النمل] فهى تعلم أن الجيش لو حطَّم النمل ، فهذا عن غير مقصد منهم ، وعندها أحسَّ سليمان بنعمة الله عليه بأنْ يعلم ما لا يعلمه غيره من الناس ، فقال ﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي[1] أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [النمل]

فمعنى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم] أى : فى عُرْفنا نحن ، وعلى قَدْر فَهْمنا للحياة وللموت ، والبعض يقول : يعنى يُخرج

---

(١) معنى أوزعنى : ألهمنى وأولعنى به . وتأويله فى اللغة : كُفَّنى عن الأشياء إلا عن شكر نعمتك ، وكُفَّنى عما يباعدنى عنك . [لسان العرب - مادة : وزع] .

البيضة من الدجاجة ، ويُخرج الدجاجة من البيضة ، وهذا الكلام لا يستقيم مع منطق العقل ، وهل كل بيضة بالضرورة تُخرج دجاجة ؟ لا بل لا بُدَّ أنْ تكون بيضة مُخصَّبة . إذن : لا تقُلْ البيضة والدجاجة ، ولكن قُلْ يُخرج الحى من الميت من كل شىء موجود .

ثم يقول سبحانه ﴿ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ .. (١٩) ﴾ [الروم] وفى موضع آخر يقول تعالى : ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ .. (٩٥) ﴾ [الأنعام] فأتى باسم الفاعل (مُخْرِج) بدلاً من الفعل المضارع .

لذلك وقف عندها المشككون فى أسلوب القرآن ، يقولون : إنْ كانت إحداهما بليغةً ، فالأخرى غير بليغة ، وهذا منهم نتيجة طبيعية لعدم فَهْمهم للغة القرآن ، وليستْ لديهم الملَكة العربية التى تستقبل كلام الله .

وهنا نقول : إن الذى يتكلم ربٌّ يعطى لكل لفظة وزنها ، ويضع كل كلمة فى موضعها الذى لا تُؤدِّيه كلمة أخرى .

فقوله تعالى ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ .. (١٩) ﴾ [الروم] هذه فى مصلحة مَنْ ؟ فى مصلحتنا نحن ؛ لأن الإنسان بطَبْعه يحب الحياة ، وربما استعلى بها ، واغترَّ بهذا الاستعلاء ، كما قال ربنا : ﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧) ﴾ [العلق]

لذلك يُذكِّره ربه تعالى بالمقابل : فأنا كما أُخرج الحىَّ من الميت أُخرِج الميت من الحىِّ فانتبه ، وإياك أنْ تَتعالى أو تتكبَّر ، وافهم أن الحياة موهوبة لك من ربك يمكن أنْ يسلبها منك فى أىِّ لحظة .

وعبَّر عن هذا المعنى مرة بالفعل المضارع (يُخرِج) الدالّ على

الاستمرار والتجدُّد ، ومرة باسم الفاعل (مُخْرِج) الدال على ثبوت الصفة وملازمتها للموصوف ، لا مجرد حدث عارض .

لذلك تأمل قول الله تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا .. (٢) ﴾ [الملك] وفي نظرنا أن الحياة تسبق الموت ، لكن الحق سبحانه يريد أن يقتل في الإنسان صفة الاغترار بالحياة ، فجعله يستقبل الحياة بما يناقضها ، فقال ﴿ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ .. (٢) ﴾ [الملك] فقدَّم الموت على الحياة ، فقبل أنْ تفكر في الحياة تذكَّر الموت حتى لا تغترَّ بها ولا تَطْغى .

ويتجلى هذا المعنى أيضاً في سورة الواقعة : ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) ﴾ [الواقعة]

يعني : خذوا بالكم ، وافهموا أنني واهب الحياة ، وأستطيع أنْ أسلبها فلا تغترَّ بها ولا (تتفرعن) ، وكأن الحق سبحانه يريد أنْ يدكَّ في الإنسان صفة الكبرياء والتعالي ، فيُحدث هذه المقابلة دائماً بين ذكْر الموت وذكْر الحياة في آيات القرآن الكريم .

ثم ألاَ ترى أن الخالق سبحانه لم يجعل للموت سبباً من أسباب العمر والسنين ، فواحد يموت قبل أنْ يُولَد ، وواحد يموت بعد يوم أو بعد شهر ، وآخر يموت بعد عدة أعوام ، وآخر بعد مائة عام .

إذن : مسألة لا ضابط لها إلا اقدار الله وأجله الذي أجَّله سبحانه ، وفي هذا إشارة للإنسان : احذر فقد تُسلَب منك الحياة التي ينشأ منها غرورك في أيِّ لحظة ، ودون أنْ تدري ودون سابق إنذار أو مقدمات ، فاستقمْ إذن على منهج ربك ، ولا تجترئ على

المعصية ؛ لأنك قد تفوت قبل أنْ تتدارك نفسك بالتوبة .

لذلك يقولون : إن الحق سبحانه حين أبهم وقت الموت بيَّنه بالإبهام غاية البيان ، كيف ؟ قالوا : لأنه سبحانه لو حدَّد لك موعد الموت لكنتَ تستعد له قبل أوانه ، إنما حين أبهمه جعلك تستعدّ له كل لحظة من لحظات حياتك .

ثم يقول سبحانه : ﴿ وَيُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا .. ﴿١٩﴾ ﴾ [الروم] وفي موضع آخر : ﴿ وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾ ﴾ [الحج]

فالأرض كانت ميتة هامدة جامدة جرداء ، لا أثر فيها لحياة ، فلما نزل عليها الماء وسقاها المطر تحركتْ وأنبتتْ من كل زوج بهيج ، فهي نموذج حيٌّ مُشاهد للخلْق وللحياة .

وفي آية أخرى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً .. ﴿٦٣﴾ ﴾ [الحج] فهل اخضرتْ الأرضُ ساعةَ نزل عليها المطر ؟ لا ، إنما بعد فترة ، كأنه سبحانه يقول لك : لاحظ الحدث ساعة يوجد ، واستحضر صورته ، فبعد نزول الماء ترى الأرض تخضرّ تدريجياً ، وإنْ لم تبذر فيها شيئاً ، ففيها بذور شتَّى حملتْها الرياح ، ثم استقرتْ في التربة ولو لسنوات طوال تظل صالحة للإنبات تنتظر الماء لتؤدي مهمتها .

والذي عاش في الصحراء يشاهد هذه الظاهرة ، وقد رأيناها في عرفة بعد أنْ نزل عليها المطر ، وعُدْنا بعد عدة أيام ، فإذا الأرض تكتسي باللون الأخضر . لذلك إياك أن تظن أن كل زرع زرعه الإنسان ، وإلاَّ فمنْ أين جاءت أول بذرة زرعها الإنسان . إذن : هناك زراعات لا دخلَ للإنسان بها .

ولنقرأ قصة مريم عليها السلام : ﴿ يَـٰمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [آل عمران] فالاصطفاء الأول لم يقُلْ على مَنْ . فالمعنى : اصطفاك على الخَلْق جميعاً ، بأن طَهَّرك وجعلك صالحة تقية قوَّامة ... الخ .

أما الاصطفاء الآخر فليس على الخَلْق جميعاً ، إنما على النساء ؛ لأنها تفردتْ عن نساء العالمين بأنْ تلدَ بغير ذكورة .

والشاهد الذى نريده هنا أن يوسف النجار لما لاحظ على مريم علامات الحمل وهو يعلم مَنْ هي مريم ، وأنها لم تفارق المحراب طوال عمرها ، فلم يردْ على ذهْنه المعنى الثانى ، ويريد أن يستفهم عَمَّا يراه ، فسألها بأدب : يا مريم ، أتوجد شجرة بدون بذرة ؟ فقالت وقد لقَّنها الحق سبحانه : نعم ، الشجرة التى أنبتت أول بذرة .

إذن : الحق سبحانه يمتنُّ علينا بالشيء ، ثم يُذكِّرنا بقدرته تعالى على سَلْبه ، وعلى نقيضه حتى لا نغترَّ به ، ليس فى مسألة الموت والحياة فحسب ، إنما فى الزرع وفى الماء وفى النار ، واقرأ قوله تعالى :

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ ﴾ [الواقعة]

ونلحظ فى الأداء القرآنى فى هذه الآيات الدقة فى استخدام لام التوكيد فى ﴿لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا.. (٦٥)﴾ [الواقعة] فى الحديث عن الزرع ؛ لأن للإنسان دوراً فيه ، حيث يحرث ويغرس ويسقى ، وربما ظَنَّ لنفسه قدرة عليه .

لكن لما تحدَّث عن الماء ذكر فى نقضه ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا.. (٧٠)﴾ [الواقعة] بدون توكيد ، لماذا ؟ لأن الماء لا دخلَ لأحد فيه ، ولا يدعيه أحد ، فلا أنت بخرتَ الماء ، ولا أنت أنزلتَ المطر ، لذلك قال ﴿جَعَلْنَاهُ.. (٧٠)﴾ [الواقعة] بدون توكيد .

أما عند ذكْر النار كنعمة من نعَم الله لم يذكر ما ينقضها ، فقال : ﴿أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢)﴾ [الواقعة] ولم يقُلْ مثلاً : لو نشاء لأطفأناها ، تُرى لماذا ؟ قالوا : لتظل النارُ ماثلة أمامنا على حال اشتعالها لا تخمد أبداً ، وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُلوِّح بها لكل عَاصٍ علَّه يعود إلى الجادَّة .

ثم يقول سبحانه : ﴿وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩)﴾ [الروم] كذلك : إشارة إلى ما سبق ذكْره من إحياء الأرض بعد موتها ، كمثْل ذلك تُخرجون وتُبعثون ، فمَنْ أنكر البعث فلينظر عملية إحياء الأرض الجامدة بالنبات بعد نزول المطر عليها .

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠)﴾

الكلام هنا عن بَدْء الخلق ، قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم.. (٢٠)﴾ [الروم] بصيغة الجمع ، والمراد آدم ثم حواء ، ثم بثَّ الله منهما

رجالاً كثيراً ونساء ، فالعالم اليوم الذي يُعَدُّ بالمليارات حين تعود به إلى الماضي لا بُدَّ أنْ تعود إلى اثنين هما آدم وحواء ، فلما التقيا نشأ منهما النسل ، لكن هل نشأ النسل من أبعاض ميتة خرجتْ من آدم ، أم من أبعاض حيّة هي الحيوانات المنوية ؟

لو أن الحيوان المنويَّ كان ميتاً لما حدث الإنجاب . إذن : جاء أولاد آدم من ميكروب أبيهم آدم ، وانتشروا في الأرض وأنجبوا ، وكل منهم يحمل ذرة من أبيه الأول آدم عليه السلام . وبالتالي فكُلٌّ منّا فيه ذرة حية من عهد آدم ، وحتى الآن لم يطرأ عليها فناء أبداً ، وهذا هو عالَم الذَّرِّ الذي شهد خَلْق الله لآدم ، إنها أبعاضنا التي شهدتْ هذا العهد الأول بين الخَلْق والخالق سبحانه :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) ﴾
[الأعراف]

إذن : في كل منّا الآن وحتى قيام الساعة ذرةٌ حيّةٌ من أبيه آدم ، هذه الذرة الحية هي التي شهدتْ هذا العهد ، وهي التي تمثل الفطرة الإيمانية في كل نفس بشرية ، لكن هذه الفطرة قد تُطمس أو تُغلَّف بالغفلة والمعاصي .. الخ .

والحق - سبحانه وتعالى - أخبرنا أنه يخلق الأشياء ويُوجدها بكُنْ ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢) ﴾ [يس] إلا الإنسان ، فقد بلغ من تكريمه أنْ سوّاه ربه بيده ، وجعله خليفة له في الأرض ، وتجلّى عليه بصفات من صفاته ، فأعطاه من قدرته قدرةً ، ومن علْمه علْماً ، ومن حكمته حكمة ، ومن غنَاه غنيً .

وربنا سبحانه حينما يخلقنا هذا الخَلْق يريد منَّا أنْ نستعمل هذه الصفات التى وهبها لنا ، كما يستعملها هو سبحانه ، فالله تعالى بقدرته خلق لنا ما ينفعنا ، فعليك أنت بما وهبك الله من القدرة أنْ تعمل ما ينفع ، والله بحكمته رتَّبَ الأشياء ، فعليك بما لديْك من حكمة أنْ تُرتِّب الأشياء .. وهكذا .

ونشير إلى أن القدرة تختلف ، فقدرة تفعل لك ، وقدرة عُلْيا تجعلك تفعل بنفسك ، هَبْ أنك قابلتَ رجلاً ضعيفاً لا يَقْوَى على حَمْل متاعه مثلاً ، فتحمله أنت له ، فأنت إذن عدَّيْتَ إليه أثرَ قوتك ، إنما ظلَّ هو ضعيفاً .

أما الحق - تبارك وتعالى - فلا يُعدِّى أثر قوته إلى عبده فحسب ، إنما يُعدِّى له القدرة ذاتها ، فيُقوِّى الضعيف ؛ فيحمل متاعه بنفسه .

إذن : أعظم تكريم للإنسان أنْ يقول الخالق سبحانه : إننى خلقتُه بيدى فى قوله سبحانه لإبليس :

﴿ قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ .. ﴿٧٥﴾ ﴾ [ص]

ثم لك أيها الإنسان بعد هذا التكريم أنْ تكون كريماً على نفسك كما كرَّمك الله ، ولك أنْ تنزل بها إلى الحضيض ، فنفسك حيث تجعلها أنت .

يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. ﴿٦﴾ ﴾ [التين] فانظر لنفسك منزلة من المنزلتين .

وكلمة ﴿ مِّن تُرَابٍ .. ﴿٢٠﴾ ﴾ [الروم] أى : الأصل الذى خُلِق منه آدم ، والتراب مع الماء يصير طيناً ، فإنْ تعطَّن وتغيَّرتْ رائحته فهو حمأ

مسنون ، فإنْ جَفَّ فهو صلصال كالفخار ، إذن : هذه هي العناصر التي وردت ومراحل خَلْق الإنسان ، وكلها مُسمَّيات للتراب ، وحالات طرأتْ عليه .

فإنْ جاء مَنْ يقول في مسألة الخَلْق بغير هذا فلا نُصدِّقه ؛ لأن الذي خلق الإنسان أخبرنا كيف خلقه ، أما هؤلاء فلم يشهدوا من خَلْق الإنسان شيئاً ، وهم في نظر الدين مُضللون ، يجب الحذر من أفكارهم ؛ لأن الله تعالى يقول في شأنهم :

﴿ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا (٥١) ﴾ [الكهف]

وبالله لو لم يَخُضْ العلماء في مسألة الخلق خلق الإنسان وخلق الشمس والقمر والأرض ... الخ . لو لم نسمع بنظرية داروين أكانت تصدُق هذه الآية ؟ وإلا لقالوا : أين المضللون الذين تكلَّم القرآن عنهم ؟ فهم إذن قالوا وطلعوا علينا بنظرياتهم ، يريدون أنْ يُكذِّبوا دين الله ، وأنْ يُشكِّكوا فيه ، وإذا بهم يقومون جميعاً دليلاً على صدْقه من حيث لا يشعرون .

وعلى شاكلة هؤلاء الذين نسمعهم الآن ينكرون أحاديث النبي ﷺ ويُشككون في صحتها ، هذه في الحقيقة ظاهرة طبيعية جاءت لتثبت صدق رسول الله ؛ لأنه ﷺ لم يغفل هذه المسألة ، إنما أخبر عنها ونبهنا إليها ، وأعطانا المناعة اللازمة ـ الثلاثي الذي نسمع عنه من رجال الصحة .

يقول ﷺ : « يوشك رجل من أمتي يتكيء على أريكته يُحدَّث بالحديث عني فيقول : بيننا وبينكم كتاب الله ، فما وجدنا فيه من حلال حللناه ، وما وجدنا فيه من حرام حرمناه ، ألاَ وإنَّ ما حرم رسول الله مثل ما حرم الله »[1] .

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/١٣٢) والترمذي في سننه (٢٦٦٤) وابن ماجة في سننه (١٢) والدارقطني في سننه (٤/٢٨٦) من حديث المقدام بن معديكرب رضي الله عنه .

لماذا ؟ لأن الله تعالى أعطاه تفويضاً في أنْ يُشرِّع لأمته ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا .. ⑦ ﴾ [الحشر] فللرسول إيتاء ، وللرسول أمر ونهى يجب أنْ يُطاع بطاعتنا لله .

وتعالَ لمن ينكر السنة ويقول : علينا بالقرآن - عندما يصلى المغرب مثلاً واسأله : كم ركعة صليتَ المغرب ؟ سيقول : ثلاث ركعات ، فمن أين علم أن المغرب ثلاث ركعات ؟ أمن القرآن الذى يتعصَّب له ، أم من السنة التى يُنكرها . إذن : كيف يتعبد على قول رسول الله ثم ينكره ؟!

إذن : فالحق - سبحانه وتعالى - بيَّن مراحل خَلْق الإنسان من تراب ، صار طيناً ، ثم صار حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً كالفخار ، ثم نفخ فيه الله من روحه ، ونحن لم نشاهد هذه المسألة ، إنما أخبرنا بها ، ومن رحمته تعالى بخَلْقه ، ولكى لا تحار عقولهم حينما تبحث هذه العملية يعطينا فى الكون المشاهد لنا شواهد تُوضِّح لنا الغيب الذى لم نشاهده .

ففى أعرافنا أن هَدْم الشيء أو نَقْض البناء يأتى على عكس البناء، فما بُنى أولاً يُهْدَم آخراً ، وما بُنى آخراً يُهدَم أولاً ، وأنت لم تشاهد عملية الخَلْق ، لكن شاهدتَ عملية الموت ، والموت نَقْض للحياة .

ولك أنْ تتأملَ الإنسان حينما يموت ، فأول نَقْض لبنيته أنْ تخرج منه الروح ، وكانت آخر شيء فى بنائه ، ثم يتصلَّب الجسد ويتجمد ، كما كان فى مرحلة الصلصالية ، ثم يتعفَّن وتتغير رائحته ، كما كان فى مرحلة الحمأ المسنون ، ثم تمتص الأرض ما فيه من مائية ليصير إلى التراب كما بدأه خالقه من تراب ، إذن : صدق الله تعالى فى المشهد حين بيَّن لنا الموت ، فصدَّقنا ما قاله فى الحياة .

وكما أن التراب والطين هما أصل الإنسان فهما أيضاً مصدر

الخصْب والنماء ، ومخازن للقوت وهما مُقوِّم من مُقوِّمات حياتنا ؛ لذلك لما تكلم القرآن عن التراب قال سبحانه : ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا .. (١٠)﴾ [فصلت] يعنى : فى الجبال لأنها أقرب مذكور أو فى الأرض عموماً ؛ لأن الرواسى فى الأرض ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا .. (١٠)﴾ [فصلت]

فالقوت يأتينا من طينة الأرض ، ومن التراب الذى يتفتت من الجبال مُكوِّناً الطمى أو الغرْيَن الذى يحمله إلينا ماء المطر ، فالأرض هى أمنا الحقيقية ، منها خُلقْنا ، ومنها مُقوِّمات حياتنا .

وعجيب أن نرى من العلماء غير المؤمنين مَنْ يثبت صدْق القرآن فى مسألة خلْق الإنسان من طين حين حلَّلوا عناصر الأرض فوجدوها ستة عشر عنصراً هى نفسها التى وجدوها فى جسم الإنسان ، وكأن الحق سبحانه يُجنِّد مَنْ يثبت صدْق آياته ولو من الكفار .

وصدق الله العظيم حين قال : ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ .. (٥٣)﴾ [فصلت] . وفى القرآن آيات تدلّ على معادلات لو بحثها (الكمبيوتر) الآن لا بُدَّ أنْ نؤمن بأن هذا الكلام من عند الله وأنه صدق .

تأمل ظاهرة اللغة ، وكيف نتكلم ونتفاهم ، فأنت إذا لم تتعلم الإنجليزية مثلاً لا تفهمها ؛ وكذلك هو لا يفهم العربية . لماذا ؟ لأن اللغة وليدة المحاكاة ، فما تسمعه الأذن يحكيه اللسان ، وهى ظاهرة اجتماعية ، فلو عاش الإنسان وحده لما احتاج للغة ؛ لأنه سيفعل ما يطرأ على باله وفقط .

أمّا حين يعيش فى جماعة فلا بُدَّ له أن يتفاهم معهم ، يأخذ

منهم ويأخذون منه ، يسمع منهم ويسمعون منه ، حتى الأخرس لا بُدَّ له من لغة يتفاهم بها مع مَنْ حوله ، ويستخدم فعلاً لغة الإشارة ، وقد أقدره الله على فهمها .

والله سبحانه يُبقي للإنسان المتكلم دلالات الإشارة في النفس الناطقة ، فمثلاً لو اضطررت للكلام وفي فمك طعام ، فإنك تشير لولدك أو لخادمك مثلاً ويفهم عنك ويفعل ما تريد .

إذن : فينا نحن الأسوياء بقايا خَرس نستعمله ، حينما لا يسعفنا النطق إذن : التفاهم أمر ضروري ، واللغة وليدة المحاكاة ؛ لذلك نقول للولد الصغير : لا تخرج إلى الشارع ، لماذا ؟ حتى لا تسمع أذنه كلاماً قبيحاً فيحكيه هو .

إذن : كيف تعلمتُ اللغة ؟ تعلمتها من أبي ومن المحيط بي ، وتعلمها أبي من أبيه ، ومن المحيطين به ، وهكذا . ولك أن تسلسل هذه المسألة كما سلسلنا التكاثر في الإنسان ، وسوف نعود بالتالي إلى أبينا آدم عليه السلام ، وعندها نقول : ومَنْ علَّم آدم اللغة ؟ يرد علينا القرآن : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا .. (٣١) ﴾ [البقرة] هذا كلام منطقي استقرائي يدلُّ دلالة قاطعة على صدْق آيات القرآن .

وقوله سبحانه : ﴿ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ (٢٠) ﴾ [الروم] ثم : أي بعد أنْ خلقنا الله من تراب تكاثر الخَلْق وتزايدوا بسرعة ! لأن السياق استعمل هنا (إذا) الفجائية الدالة على الفجاءة ، والتي يُمثِّلون لها بقولهم : خرجتُ فإذا أسدٌ بالباب ، يعني : فاجأني ، فالمعنى أنكم تتزايدون وتنتشرون في الأرض بسرعة ، ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ
أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً
إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) ﴾